الفصل الثالث

وينقسم إلى مبحثين:

المبحث الأول: المساجلات التي دارت بين الإمامين –رحمهما الله.

المبحث الثاني: ظاهرة التأثير والتأثر بين الإمامين –رحمهما الله.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

المساجلات التي دارت بين الإمامين رحمهما الله

من المعروف أن بدر الدين العيني والحافظ بن حجر –رحمهما الله– متعاصران ومتقاربان في السن. ومن طبائع البشر غالبا التنافس بين الأقران وخصوصا إذا كانوا مما يشار إليهم بالبنان كما كان الإمامان –رحمهما الله– لذلك رأينا بينهما تنافسًا شديدًا. وهذا أمر طبيعي لأن دواعي التنافس بينهما متوفرة.

(أ) فكلاهما من المُبَرَّزِين في علم الحديث والفقه واللغة والتاريخ بل وممن عُقِدَ لهم اللواء في علوم الدين على الإطلاق وإليهما المرجع في كل مسئلة أو نائبة.

(ب) وأيضًا: كل منهما مختلف في المذهب الفقهي عن الآخر، فالعيني حنفي المذهب وابن حجر شافعي المذهب، وكل منهما متأثر بمذهبه الذي تعلمه ونشأ عليه منذ الصغر حتى أصبح يجري منه مجرى الدم في العروق فهو يراه دائما راجحا لذا يحاول قدر ما استطاع نصرته والذود عنه. ولا يقبل أي طعن فيه. وهذا من أهم دواعي شدة المنافسة بين الإمامين –رحمهما الله.

(ج) وأيضا: تعاقبهما في المناصب السياسية في الدولة. فقد تولى العيني –رحمه الله– القضاء، وبعد عزله مباشرة تولى منصب القضاء ابن حجر –رحمه الله–، وهذا لا شك من دواعي زيادة المنافسة بينهما. ومما وسَّع دائرة التنافس بين الإمامين –رحمهما الله– وجعلها تنتقل إلى طور أكبر في شكل مساجلات بينهما ظهور شرح بدر الدين العيني –رحمه الله– عقب شرح الحافظ ابن حجر، وخصوصا أن لكل منهما أتباعًا ومريدين

obeikandl.com

وتلاميذُ يروِّجون لآراء شيخهم وينتصرون له ويحاولون تقديمه على غيره. وينقلون له كل ما يقال في حقه. وهذا مما وسَّع دائرة التنافس بل والتنازع بين الإمامين –رحمهما الله.

وسوف أعرض الآن بعض المواقف التي حدثت بين الإمامين –رحمهما الله– والتي من خلالها يظهر ما كان بينهما من تنافس بلغ ذروته.

مظاهر التنافس بين الإمامين –رحمهما الله–: هناك أمور ومواقف حدثت بين الإمامين تُبَيِّن ما كان بينهما من تنافس شديد:

أحدها: لما مالت مئذنة الجامع المؤيدى على البرج الشمالي وكادت تسقط في نهاية سنة تسع عشرة وثمانمائة (٨١٩) وكان العيني –رحمه الله– شيخ الحديث بها حينئذ.

قال الحافظ ابن حجر:

لِجامع مولانا المؤيدُ رونقٌ منارتُه بالحسنِ تزهو وبالزَّينِ
تقولُ وقد مالت عليهمُ تمهَّلوا فليس على حسنى أضرُّ من العينِ

فتحدث الناس أن الحافظ ابن حجر بقوله: (فليس على حسنى أضر من العين) قصد التورية بالبدر وخصوصا أنه مشهور بالعيني.

فقال البدر –رحمه الله– يعارضه:

منارة كعروسِ الحُسنِ إذْ جُلِّيت وهدمُها بقضاءِ اللهِ والقدرِ
قالوا أُصِيبَتْ بعينٍ قلتُ ذا غلطٌ ما آفةُ الهدمِ إلا خسَّةُ الحجرِ[1]

وهو بذلك يعرِّض بالحافظ ابن حجر[2].

---

(1) راجع: الخطط المقريزية ٣٢٩/٢، النجوم الزاهرة ص ٧٥/١٤، ٧٦، مفتاح السعادة ص ٢٦٦/١

(2) ادعى الحافظ ابن حجر رحمه الله أن هذين البيتين لم يقلهما العين، وإنما استعان

ثانيها: كان العيني -رحمه الله- متوليا لمنصب القضاء وأثناء فترة توليته لمنصب القضاء كان قد قضى بإقامة خطبة الجمعة بإحدى المساجد. وحينما عزل العيني عن منصبه وتولى ابن حجر منصب القضاء قضى بقطع الخطبة من هذا المسجد.

ولقد وصف الكوثري -رحمه الله- تصرف ابن حجر هذا أنه من فرط تعصب ابن حجر ومنافسته للعيني التي فاقت الحدود فقال: وتعصب ابن حجر على البدر ينجلي بصورة بعيدة عن الذوق في أدوار حياته كإزالة ابن حجر الخطبة عن مسجد أقامها فيه البدر بمجرد انفصاله من القضاء وقد تدارك الأمر قاض القضاه سعد الدين الديري وأعادها كما كانت[1]. اهـ

ثالثها: قال العيني -رحمه الله- في تاريخه عند ترجمته للأمير محمد بن الملك الظاهر جقمق: وكان له صيت وحرمة عظيمة يتردد إليه الناس ولاسيما القاضيان الشافعي والحنفي (يعني ابن حجر والسعد الديري) في الجمعة مرتين أو ثلاث ويقاسيان مشقة تلك السلالم والمدارج حتى كان الناس يسمونهما فقهاء الأطباق.

استعان بالنواجى، فنظمهما له ونسبهما لنفسه. راع: أنباء الغمر ص ٢٨١/٧ والذي أراه -والله أعلم- أنه لا يصعب على مثل العيني رحمه الله أن يقولهما بل ويقول أجود منهما. فإن السخاوي وهو تلميذ ابن حجر الوافي يقرر أن للعيني نظما مقبولا فيقول: (وله نظم منه المقبول وغيره)، وكثير ممن ترجم للعيني نسبوا هذين البيتين له، كالمقريزي والسيوطي وابن اياس وابن تغرى بردى وغيرهم.

راجع: الضوء اللامع ص ١٣٥/١٠، بدائع الزهور ص ٣٥/٢-٣٦، حسن المحاضرة ص ٢٧٢/٢

(1) ذكر الكوثري هذا الكلام في تقديمه لعمدة القاري ص ٥/١-٦، أما تفصيل القصة فمن أراده فليراجع: أنباء الغمر ص ٧٧٢/٢، التبر المسبوك ص ٩-١٠

قال: وكل هذا من عدم حفظ حرمة العلم ولكنهما وسائر المترددين إليه كانوا يؤملون استقراره في السلطنة عن قريب أما في حياة أبيه أو بعده فأتى القضاء بعكس ما في خواطرهم. اهـ

قال السخاوي بعد أن نقل ذلك عنه: وكأنه -رحمه الله- لم يستحضر حين كتابته لهذا ملازمته وترده للأشرف وغيره في قراءة التاريخ ونحوه. بل لو كان في أيامه قاضيا لبادرهما إلى الطلوع وأرجوا أن يكون قصد الجميع بذلك حسنا - رحمهم الله وإيانا [(١)] . اهـ

رابعها: كتب العيني -رحمه الله- خطبة كمقدمة لشرحه حينما عزم على شرح صحيح البخاري. وتعرض فيها للحافظ ابن حجر ببعض الانتقادات. فرد عليه الحافظ في جزء سماه (الاستنصار على الطاعن المعثار)[(٢)].

قال السخاوي -رحمه الله-: عمل شيخنا قديما حين رآه -يقصد العيني- تعرض في خطبته له جزءا سماه (الاستنصار على الطاعن المعثار) بيَّن فيه ما نسبه إليه مما زعم انتقاده في خصوص الخطبة ووقف عليه الأكابر من سائر المذاهب كالجلال البلقيني والشمسين البرماوى وابن الديرى وغيرهم فبيَّنوا فساد انتقاده وصوَّبوا صنيع شيخنا وأنزلوه منزلته[(٣)]. اهـ

---

(1) راجع: التبر المسبوك ص ٨٣ – تقديم الكوثري لعمدة القاري.
(2) بحثت عنه كثيرا في المخطوطات فلم أعثر عليه.
(3) الضوء اللامع ص ١٠/١٣٣

وإن كان السخاوي -رحمه الله- لم يبين نوع النقد الذي وجهه العيني -رحمه الله- لشيخه ابن حجر فإن الحافظ ابن حجر -رحمه الله- قد بيَّنه في مقدمة كتابه «انتقاض الاعتراض»[1].

فقال الحافظ في الانتقاض: وفي سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة (٨٢٢) أحضر إليَّ طالب علم كراسة بخط محتسب القاهرة الذي تولى بعد ذلك قضاء الأحناف في الدولة الأشرفية فرأيت فيه ما نصه: «الحمد لله الذي أوضح معالم الدين وأفضح وجوه الشك بكشف النقاب عن وجه اليقين بالعلماء المستنبطين الراسخين والفضلاء الشامخين».

فاستمر في هذا المهيع بذكر من تصدى لجمع السنن النبوية إلى أن ذكر البخاري وذكر فضل صحيحه وأنه فاق غيره ولذلك أقبل عليه كبار العلماء وعملوا عليه شروحا...

---

(1) قال القسطلاني: ولشيخ الإسلام الحافظ ابن حجر (انتقاض الاعتراض) يجيب فيه عمَّا اعترضه عليه العيني في شرحه طالعته لكنه لم يجب عن أكثرها لعله كان يكتب الاعتراضات ويبين لها ليجيب عنها فاخترمته المنية. اهـ
ارشاد السارى ص ١/٤٣-٤٤. وقال الكوثري: وبعد أن اطلع الشهاب على شرح البدر أخذ يؤلف في رفع اعتراضاته كتابا أسماه (انتقاض الاعتراض) فكتب الاعتراضات وترك ما تحتها بياضا ليتسنى له الإجابة عنه فاخترمته المنية ولم يقدر أن يجيب عن غالبها. اهـ (تقديم الكوثري للعمدة ص ١/٩).
ولقد عثرت – بحمد الله ومنه – على نسخة مخطوطة منه بمعهد المخطوطات العربية. كتبت بيد الشيخ علي بن علي بن إبراهيم بن داود الطوخي المالكي. ولقد استفدت منها كثيرا جدا وأثرت هذا البحث وكشف لي من خلالها أمور لم أر أحدا كتبها أو قالها وهذا واضح لمن يقرأ هذا البحث.

obeikandl.com

إلى أن قال: لكن لم يقع لي شرح يشفي العليل ويروي الغليل لأن منهم من طوَّل فأمل ومنهم من قصَّر فأخل على أنه لم يصل واحد منهم على كثرتهم لما هو المقصود.

ثم ذكر أن الذي دعاه إلى شرحه هذا الكتاب أمور:

أحدها: أن يعلم أن في الخبايا زوايا (أي في الأمور الغامضة أسرار لا يعرفها إلا العلماء)

وثانيها: قطع حجة من يدَّعي الانفراد في هذا الباب.

وثالثها: إظهار ما منحه الله من العلوم.

ثم أخذ في ذم أهل زمانه جميعا:

أما علماؤهم: فلما عندهم من الحسد.

وأما رؤساؤهم: فلما عندهم من الشح والتهاون بالعلماء.

ثم وصف ما عزم عليه من شرح هذا الكتاب، بأن يظهر صعابه ويبيِّن معضلاته ويوضح مشكلاته بحيث أن الناظر فيه إن أراد المنقول ظفر بآماله. وإن أراد المعقول فاز بكماله.

إلى أن قال: فجاء هذا الكتاب –بحمد الله– فوق ما في الخواطر فائقا على سائر الشروح بكثرة الفوائد والنوادر. قم ذكر سنده إلى البخاري. ثم ذكر مقدمة لطيفة انتزعها من القطعة التي كتبها شيخ الإسلام النووي ولو كان نسخها من نسخة صحيحة ونسبها إليه لا له لتفادى السلامة مما وقع في خطه من التصحيف الكثير من الأسماء والسمات والتحريف لبعض الكلمات.

وقد تتبعت ما وقع له من ذلك في تلك الكراسة التي ابتدأ بها فزاد على ثمانين غلطة. فأفردت ذلك في جزء سميته (الاستنصار على الطاعن المعثار)، فكتب عليها علماء ذلك العصر. كقاضي القضاة جلال الدين

البلقيني ورفيقاه قاضي القضاه علاء الدين المغلى وقاضي القضاه شمس الدين الديرى ومن المشايخ شرف الدين البرماوى. كتبوا كلهم بتصويب ما تعقبته عليه[١].

خامسها: العيني -رحمه الله- أثناء كتابته لشرح العمدة، كان يطَّلع على ما كتب من الفتح لأنه متقدم عليه. فاعترض على الحافظ ابن حجر في بعض النقاط العلمية التي ذكرها ابن حجر في الفتح وكثرت اعتراضاته[٢] جدا. ولم يصرح باسمه أبدا وإنما يقول: (قال بعضهم -أو ذكر بعضهم- أو كلام بعضهم كذا... إلخ)، وعادة ما تكون هذه الاعتراضات مصحوبة ببعض الألفاظ اللازعة التي تحمل طعنا في الحافظ ابن حجر أو انتقاصا من شرحه أو إظهارا لبعض العيوب فيه.

فنراه مثلا: كثيرا ما يعترض على الحافظ ابن حجر في بعض النقاط اللغوية ويعقب اعتراضه بقوله في حق الحافظ ابن حجر: (وكأنه لم يشم رائحة العربية – وكأنه لم يشم رائحة الصرف – وهو ليس من أهل الفن وليست له فيه يد... إلخ) [٣].

وكثيرا ما ينبه على بعض عيوب شرحه بغرض الانتقاص منه.

فنراه يقول عقب بعض اعتراضاته ما نصه: «وقد أطال بعضهم (يقصد ابن حجر) الكلام في هذا جدا مختلطا بعضه ببعض من غير ترتيب فالناظر فيه إن كان له يد يشمئز خاطره من ذلك وإلا فلا يفهم شيئا أصلا»[٤]. اهـ.

---

(1) انتقاض الاعتراض ص ٢-٣

(2) حاولت قدر جهدي إحصاء عد اعتراضات العيني فوجدتها حوالي ألفين ومائة وتسعين اعتراضا أو يزيد قليلا وهذا على وجه التقريب.

(3) راجع: العمدة ص ١/٩٥، ٢٢/٩٧، ٢٥/١٧٢

(4) عمدة ص ١٧/٣٠٠

obeikandl.com

ويقول أيضا في موضع آخر: ما نصه: «وقد طوَّل بعضهم (يقصد ابن حجر) هنا كلاما يمزق فكر الناظر بحيث لا يرجع بشيء»[١] اهـــ.

وأمثال هذا في العمدة كثير وكثير. ولربما كان أحيانا بألفاظ أشد من هذا لا نطيل بذكرها.

سادسها: بعد أن انتهى البدر العيني -رحمه الله- من شرحه (عمدة القاري) اطَّلع عليه الحافظ ابن حجر وقرا تلك الاعتراضات التي فيها الألفاظ اللازعة، شرع في الرد عليها وكانت ردوده أيضا مصحوبة ببعض الألفاظ اللازعة وكشف بعض العيوب والمساوئ في شرح العيني -رحمه الله.

فنراه مثلا: كثيرا ما يتهم العيني -رحمه الله- بقِصَر الباع في علم الحديث، فكثيرا ما يقول أثناء رده على بعض اعتراضات العيني -رحمه الله- (لا شعور عنده بهذا الفن) [٢]، وتارة يقول: (هو لا يفهم كلام (ح) [٣]، وتارة يجيب بقوله: (من تأمل كلامه عرف قصوره وإقدامه على الدفع بالصدر)[٤] وتارة يقول: (إذا فهم المنصف اعتراضه وجوابه عرف قدر فهمه ومبلغ علمه) [٥] وكثيرا ما يبدي بعض العيوب في شرحه (العمدة)، فقد انتقد الحافظ ابن حجر العيني في إطالته في اللغة والإعراب واعتبره مما لا فائدة فيه وقد يكون في بعض المواضع ضربا من الهذيان.

فقال في الانتقاض ما نصه: «وربما بالغ في بسط الكلام على إعراب جملة أو تصريف كلمة بما لا يستفاد منه كثيرا كقوله: **آية المنافق ثلاث**»

---

(1) عمدة ص ٢٢/٢٥٤
(2) انتقاض ص ٢٢٤
(3) انتقاض ص ١١٤
(4) انتقاض ص ٢١
(5) انتقاض ص ١٤

obeikandl.com

فإن قلت ما وزن آية قلت فيه أربع أقوال فاستمر يسرد ورقة في النقل عن أهل التصريف. فلو التزم ذلك في جميع أنظاره لكان كتابه أضعاف ما اقتصر عليه لكنه بحسب ما يجده مسطورا لغيره فيحب أن يتكثر به. ويقع له نحو ذلك إذا وجد مغلطاي قد تكلم على لغات بعض الأسماء. فإنه لما شرح كلمة الكذب قال: (الكذب) نقيض الصدق كذب يكذب كذبا وكذبه وكذابا ورجل كاذب وكذاب ويكذب وكذوب وكذوبه وكذبان[١]. واستمر في هذا الهذيان ضعفى ما ذكره في تصريف (آية)[٢] اهـ.

ونرى الحافظ ابن حجر أيضا حينما ذُكِرَ له عن بعض الفضلاء ترجيح العمدة على الفتح. سارع بإبداء ما يؤدي إلى انتقاصه.

قال السخاوي -رحمه الله- وهو بصدد ترجمته للعيني: «وذُكِرَ لشيخنا عن بعض الفضلاء ترجيحه (يعني العمدة) بما اشتمل عليه من البديع. فقال بديهة: هذا شيء نقله من شرح لركن الدين[٣] وكنت قد وقفت عليه قبله ولكن تركت النقل منه لكونه لم يتم إنما كتب منه قطعة يسيرة وخشيت من تعيب بعد فراغها من الاسترسال في هذا المهيع بخلاف البدر فإنه بعدها لم يتكلم بكلمة واحدة في ذلك»[٤] اهـ.

---

(1) توسع فعلا العيني وأطال فيما يتعلق بالنواحي اللغوية في كلمتي (آية- وكذب)، فسطر في تصريفات (آية) عشرة سطور، وفي (كذب) ثلاثة عشر سطرا من العمدة علما بأن طبعته بخط صغير جدا.

(2) انتقاض الاعتراض ص ٢٨

(3) هو أحمد بن محمد بن عبد المؤمن الحنفي القرمي ركن الدين توفي ٧٨٣ جمع شرحا على البخاري استمد فيه من شرح ابن الملقن (راجع شذرات الذهب ٢٧٨/٦).

(4) الضوء اللامع ص ١٣٤/١٠، كشف الظنون ص ٥٤٩/١

ولقد حدث بين الإمامين –رحمهما الله– من هذا الكثير والكثير أثناء الاعتراضات والرد عليها.

obeikandl.com

اعتراضات العيني -رحمه الله-
في
ميزان النقد

ونحن نتساءل عن هذه الاعتراضات التي كانت من العيني -رحمه الله- في شرحه وُجِّهت للحافظ ابن حجر وشرحِه.

هل هي مُسلّمة أم لا؟ وهل العيني -رحمه الله- مُحقٌّ فيما اعترض به على ابن حجر؟

وللجواب عن هذا التساؤل:

أقول: من خلال دراستي في الفتح والعمدة تبيَّن لي أن اعتراضات العيني -رحمه الله- على الحافظ ابن حجر ليست كلها مُسلَّمة، بل منها بعض الاعتراضات السليمة الصحيحة يكون رأيه فيه في غاية الوجاهة والقَبول، ومنها بعض الاعتراضات الواهية بل المرجوحة بالنسبة لكلام الحافظ ابن حجر -رحمه الله- وهذا هو الغالب والكثير على اعتراضاته.

١ – فلقد رأيته أحيانا: يعترض على الحافظ ابن حجر اعتراضا هزيلا لا قيمة له حتى أنه ليخيل للقارئ أنه ضرب من باب الشغف بحب الاعتراض فقط لا غير.

٢ – يعترض عليه مع أن كلام الحافظ -رحمه الله- في غاية الظهور والوضوح ولا ينبغي الاعتراض عليه.

٣ – وأحيانا: يعترض عليه بأنه أخطأ في شيء مع أنه لم يذكر هو الصواب وقد يَنْسِبَ له القصور في شيء ولم يجبر هو هذا القصور فيذكر هذا الشيء.

٤ – وأحيانا: يعترض عليه بما هو ليس من كلامه بل مجرد ناقل له عن غيره ولربما يكون الحافظ في الفتح لم يرتض هذا الكلام بل تعقبه، وهذا

يوهم بلا شك القارئ أن هذا الكلام من قول ابن حجر -رحمه الله- والواقع غيرُ ذلك.

٥ – وأحيانا: يعترض عليه باعتراض ثم يجيب عنه بجواب قد ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح، وربما ينقل بعض كلام ابن حجر من الفتح – مبتورًا – ثم يجيب بجواب موجود في الفتح وهو باقي كلام ابن حجر الذي بُتِرَ وذُكِرَ بعضه.

٦ – وأحيانًا يعترض عليه بما قاله هو في موضع آخر يعني ما قاله ابن حجر الذي اعترض عليه العيني. قاله نفسه العيني في موضع آخر للحديث.

مثال ذلك: في كتاب اللباس، باب: المتنمصات من العمدة ص٦٦/٢٢ اعترض على ابن حجر لأنه قال: (المتنمصات: هي التي تطلب النماص) فتح ص ٣٩٠/١٠ فقال عقب نقل كلامه (قلت: ليس كذلك بل معناه التي تتكلف النماص وهو إزالة شعر الوجه) اهـــ.

مع أنه قال في كتاب تفسير القرآن باب (وما آتاكم الرسول فخذوه) ص٢٢٤/١٩ نفس كلام ابن حجر فقال ما نصه: (والمتنمصة هي الطالبة إزالة شعر وجهها) اهـــ ص ٢٢٥/١٩.

فانظر كيف يعترض عليه ثم هو يذكر نفس كلامه أفلا اعترض على نفسه. اهـــ.

والصواب: ما قاله ابن حجر كما جاء في كتب الغريب: ... إلخ.

وحتى يتضح ما ذكرته هذا من صنيع العيني -رحمه الله- سوف أذكر الآن لكل ما قلت أمثلة علمية يتضح بها المقال فأقول:

المثال الأول: وهو لما اعترض عليه العيني وهو محق في اعتراضه:

أخرج البخاري في كتاب الزكاة باب صدقة الفطر صاعًا من تمر ٣/ ٤٣٥ بسنده عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: (أمر النبي ﷺ بزكاة الفطر صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير).

قال الحافظ في الفتح: قوله (أمر) استدل به على الوجوب وفيه نظر؛ لأنه يتعلق بالمقدار لا بأصل الإخراج[١]. اهـ.

وقال البدر في العمدة: قوله (أمر) استدل به على وجوب صدقة الفطر، قال بعضهم (يقصد ابن حجر) فيه نظر؛ لأنه يتعلق بالمقدار لا بأصل الإخراج. قلت: إذا كان المقدار واجبًا فبالضرورة يدل على وجوب الأصل؛ لأن وجوب المقدار مبني عليه [٢]. اهـ.

قلت: فنحن نرى أن كلام العيني -رحمه الله- في غاية الصحة واعتراضه في غاية الوجاهة فهو محق في هذا الاعتراض.

لذلك نرى صاحب المحاكمات بعد عرضه لكلام الإمامين -رحمهما الله- يقول ما نصه: «وأقول: اعتراض العيني في غاية التوجه على ظاهر الحال لظهور الملازمة بينهما»[٣]. اهـ.

المثال الثاني: وهو لما اعترض به العيني على ابن حجر واعتراضه واهي بل لا يَرِدُ أصلاً على كلام الحافظ ابن حجر حتى يُخيَّل للقارئ أنه من باب حب الاعتراض فقط.

---

(1) الفتح ص٣/ ٤٣٥.

(2) العمدة ص٩/ ١١٦.

(3) مبتكرات اللآلئ والدرر في المحاكمة بين العيني وابن حجر ص٢١٠.

أخرج البخاري في كتابه الكفالة باب من تكفل عن ميت دينًا فليس له أن يرجع ٤/ ٥٥٤ بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «قال النبي ﷺ: لو قد جاء مال البحرين قد أعطيتك هكذا وهكذا، فلم يجئ مال البحرين حتى قبض النبي ﷺ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فنادى: من كان له عند النبي ﷺ عِدَة أو دين فليأتنا، فأتيته فقلت: إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا، فحثى لي حثية فعدته فإذا هي خمسمائة وقال: خذ مثليها».

قال الحافظ في الفتح: وفيه قبول خبر الواحد العدل من الصحابة ولو جر نفعًا لنفسه لأن أبا بكر لم يلتمس من جابر شاهدًا على صحة دعواه[1] اهـ.

وقال البدر في العمدة: وقال بعضهم (يقصد ابن حجر) وفيه قبول خبر الواحد... ونقل كلامه، ثم قال: قلت: إنما لم يلتمس شاهدًا منه؛ لأنه عدل بالكتاب والسنة. أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فمثل جابر إن لم يكن من خير أمة فمن يكون؟

وأما السنة (فقوله ﷺ: **من كذب عليَّ متعمدا**[2]... إلخ) الحديث ولا يظن ذلك لمسلم فضلا عن صحابي فلو وقعت هذه المسألة اليوم فلا تقبل إلا ببينة[3]. اهـ

قلت: واعتراض العيني -رحمه الله- لا يَرِدُ على كلام ابن حجر لأمرين:

---

(1) الفتح ص٤/ ٥٥٥.

(2) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم باب إثم من كذب على النبي ﷺ ص١/ ٢٤١.

(3) العمدة ص ١٢/ ١٢١.

أولهما: أن ما قرره ابن حجر -رحمه الله- هو أنه يستفاد من الحديث قبول خبر الواحد من الصحابة ولو جر نفعا لنفسه. وهذا هو نفس ما قرره العيني غير أنه فصَّل القول بذكر الأدلة على ما قرراه من الكتاب والسنة.

ثانيهما: قول العيني -رحمه الله- (فلو وقعت هذه المسألة اليوم فلا تقبل إلا ببينة) لم يتعرض له ابن حجر أصلا. فلا يَرِدُ عليه لأن كلامه محدد وفي غاية الظهور والوضوح، لذلك نرى الحافظ ابن حجر كثيرا ما يَرُدُّ عليه في أمثال هذا الاعتراض بقوله: (وكأن (ع) لغلبة محبة الاعتراض لا يتأمل جميع الكلام والله المستعان)[1]. اهـ

وبقوله: (لكن محبته في الاعتراض تُغطِّي على بصره وبصيرته)[2].

ونرى صاحب المحاكمات أيضا في إحدى محاكماته يصفه بالشغف في حب الاعتراضات على ابن حجر فيقول ما نصه: «وما الحامل إلا شدة الشغف بالاعتراضات وليس ذلك مما ينبغي للعلماء خصوصا الفضلاء منهم كالعيني لأنه مما ينكشف بالمراجعة والتأمل فيُنتقد. والله أعلم»[3]. اهـ

المثال الثالث: وهو لما اعترض به العيني على ابن حجر -مع أن الكلام للحافظ -رحمه الله- في غاية الظهور والوضوح ولا ينبغي الاعتراض عليه أصلاً.

أخرج البخاري في كتاب الإجارة باب من كلَّم مولى العبد أن يخففوا عنه من خراجه ٥٣٧/٤ بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: (دعا النبي ﷺ

---

(1) الانتقاض ص ١١٤
(2) الانتقاض ص ٢١٨
(3) مبتكرات اللآلئ والدرر ص ٢٣٥

غلاما حجَّاما فحَجَمه وأمر له بصاع أو صاعين[١] أو مد و مدين وكلَّم فيه فخفف من ضريبته).

قال الحافظ في الفتح: قوله: (دعا النبي ﷺ غلاما) هو أبو طَيْبَةَ كما تقدم قبل باب[٢]. [٣] اهـ

وقال البدر في العمدة: قوله: (دعا النبي ﷺ غلاما) قال بعضهم (يقصد ابن حجر) هو أبو طَيْبَةَ كما تقدم قبل باب، قلت: من أين علم أنه هو فلم لا يجوز أن يكون غيره، ومن ادَّعى أن النبي ﷺ لم يكن له إلا حجَّام واحد متعين فعليه البيان. ثم ذكر حديثين أحدهما عن جابر والآخر عن أبي هريرة أن أبا هند حجم رسول الله ﷺ وليس فيهما أنه كلَّم مواليه فخففوا من ضريبته[٤]. اهـ

قلت: فنحن نرى أن كلام الحافظ ابن حجر في غاية الظهور والوضوح والصحة لأن المبهم إذا صُرِّحَ به في بعض روايات الحديث فالمصير إليه وهنا صُرِّحَ باسم أبي طَيْبَةَ في رواية أخرى للحديث عند البخاري. وهذا لا يضر عُرِفَ اسمه أو لم يعرف لأنه ليس في سند الحديث.

---

(1) الصاع: قال ابن الأثير: هو مكيال يسع أربعة أمداد والمد مختلف فيه. فقيل: هو رطل وثلث بالعراقي وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز. وقيل: هو رطلان وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق فيكون الصاع خمسة أرطال وثلث أو ثمانية أرطال. اهـ. راجع النهاية ص ٣/٦٠

(2) قلت: أخرج البخاري هذا الحديث في نفس الكتاب باب ضريبة العبد وتعاهد ضرائب الاماء ص ٤/٥٣٥ مصرحا فيه بأن الذي حجمه أبو طيبة فقال: (حجم أبو طيبة النبي ﷺ... إلخ) وذكر الحديث.

(3) الفتح ص ٤/٥٣٧

(4) العمدة ص ١٢/١٠٣ باختصار

ولذلك نرى أن اعتراض العيني -رحمه الله- لا يَرِد أصلا على كلام الحافظ ابن حجر في الفتح.

المثال الرابع: وهو لما اعترض به العيني على ابن حجر بأن خطَّأَهُ ولم يذكر هو الصواب.

في كتاب الطب باب ما يذكر في الطاعون ١٠/١٩١ ذكر الإمامان -رحمهما الله- أثناء شرحهما لأحاديث هذا الباب، حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «فناء أمتي بالطعن والطاعون. قيل: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: وَخْزُ أعدائكم من الجن وفي كل شهادة»(١).

قال الحافظ في الفتح: تحت عنوان (تنبيه) يقع في الألسنة وهو في النهاية لابن الأثير تبعا لغريبي الهروى بلفظ (وَخْزُ إخوانكم) ولم أره بلفظ (إخوانكم) بعد التتبع الطويل البالغ في شيء من طرق الحديث المسندة لا في الكتب المشهورة ولا الأجزاء المنثورة. وقد عزاه بعضهم لمسند أحمد أو الطبراني أو كتاب الطواعين لابن أبي الدنيا ولا وجود لذلك في واحد منها والله أعلم(٢). اهـ

وقال البدر في العمدة: وقال بعضهم (يقصد ابن حجر) لم أر لفظ (إخوانكم)... إلخ وساق كلامه، ثم قال: قلت: هذه اللفظة ذكرها هنا ابن الأثير وذكرها أيضا ناقلا من مسند أحمد قاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد الله أبي البقاء الشيلي الحنفي وكفى بهما الاعتماد على

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري ص ٤/٣٩٥، ٤١٣، والبزار والطبراني وابن خزيمه وصححه ابن خزيمه والحاكم.

(2) الفتح ص ١٠/١٩٢ (الوخز: طعن ليس بنافذ اهـ النهاية ص ٥/١٦٣).

صحتها. وعدم اطلاع هذا القائل لا يدل على العدم[١]. اهـــ

قلت: فالعيني -رحمه الله- خطَّأَ ابن حجر في قوله بعدم وجود لفظ (اخوانكم) في المصادر المعتمدة. ولم يذكر هو الصواب وهذا مخالف للمنهج العلمي في الاعتراضات. فالمنهج الصحيح أنه إذا اعترض على كلام بأنه خطأ يلزمه ذكر الصواب وهذا لم يفعله العيني -رحمه الله- بل اعتمد على قول غيره، لذلك نرى الحافظ في الانتقاض يرد عليه قائلا: «وكأنهما عنده معصومان من السهو. ثم دعواه لا تستمر في الشيء المحصور، فإذا ادعى مدع وجود شيء في كتاب معين وفُتِّش ذلك الكتاب فلم يوجد فيه أَمَا يلزم من نقل صحته أن يخرجه من الكتاب المذكور ليدفع إنكار من نفاه»[٢]. اهـــ.

المثال الخامس: وهو لما اعترض به العيني على ابن حجر مع أنه ليس من كلام ابن حرج.

أخرج البخاري في كتاب الإيمان باب كفران العشير وكفر دون كفر ١٠٤/١ بسنده عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي ﷺ (أُريت النار فإذا أكثر أهلها من النساء يكفرن قيل أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير... إلخ) الحديث.

وقال البخاري عقب ذكر الترجمة (فيه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ).

قال الحفظ في الفتح: وقوله: (فيه عن أبي سعيد) أي مروي عن أي سعيد. وفائدة هذا الإشارة إلى أن للحديث طريقا غير الطريق المساقة.

---

(1) العمدة ص ٢٥٦/٢١

(2) انتقاض الاعتراض ص ٢٨٨

obeikandl.com

وحديث أبي سعيد: أخرجه المؤلف في الحيض[١] وغيره من طريق عياض بن عبد الله عنه وفيه قوله: ﷺ: «**تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار**. فقلن: ولم يا رسول الله؟ قال: **تكثرن اللعن وتكفرن العشير**» الحديث.

ويحتمل أنه يريد بذلك حديث أبي سعيد أيضا «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[٢] قاله القاضي أبو بكر المذكور والأول أظهر وأجرى على مألوف المصنف ويعضده إيراده لحديث ابن عباس بلفظ «**وتكفرن العشير**»[٣]. اهـ

وقال البدر في العمدة: قوله: (فيه عن أبي سعيد) وأشار بهذا إلى أن الحديث الذي ذكره في هذا الباب له طريق غير الطريق التي ساقها ههنا، وقد أخرج البخاري حديث أبي سعيد في الحيض وغيره من طريق عياض بن عبد الله عنه وفيه قوله ﷺ للنساء: «**تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار**، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: **تكثرن اللعن وتكفرن العشير**» الحديث.

وقال بعضهم (يقصد ابن حجر) يحتمل أنه يريد بذلك حديث أبي سعيد «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» قلت: هذا بعيد ومراده ما ذكرناه ويؤيده ما في حديث ابن عباس من قوله: «**وتكفرن العشير**»

---

(1) فأخرجه البخاري في كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم ص ٤٨٣/١

(2) أخرجه الإمام الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ص ٢٩٩/٤ وقال هذا حديث حسن صحيح.

(3) الفتح ص ١٠٥/١

كذا، وفي حديث أبي سعيد وترجمة الباب بهذه اللفظة ولا يناسب الترجمة إلا حديثهما فافهم[1].

قلت: نحن نعلم أن العيني -رحمه الله- إذا قال (قال بعضهم) في معرض الاعتراض فإنما يريد به الحافظ ابن حجر وتلك عادته ولو نظرنا في الكلام الذي اعترض عليه العيني نجده وإن كان موجودًا في الفتح إلا أنه ليس من كلام ابن حجر وإنما صرَّح بنسبته للقاضي أبي بكر بن العربي، ليس ذلك فحسب بل تعقبه فيه وبين خطأه.

فلا يليق إذن بالعيني -رحمه الله- أن يعترض عليه بما هو ليس من كلامه بل هو نفسه لم يرتضه ورده ولو نظرنا أيضا: جواب العيني الذي اختاره وارتضاه وقارناه بما اختاره الحافظ ابن حجر وارتضاه لوجدناه نفس كلام ابن حجر الذي في الفتح وبحروفه.

أما إن كان العيني -رحمه الله- لا يقصد بقوله (قال بعضهم) هنا الحافظ ابن حجر فهذا مخالف لعادته وما فُهِمَ من منهجه ويوقعنا في اللبس في كثير من المواضع التي تماثل هذا الموضع.

المثال السادس: وهو لما ينقله العيني من أقوال ابن حجر مبتورة ثم يعترض عليه ويجيب بجواب، هذا الجواب هو باقي كلام ابن حجر في الفتح أو يعترض عليه ويجيب بجواب مذكور في الفتح.

أخرج البخاري في كتاب النكاح باب ضرب الدُّفِّ في النكاح والوليمة ١٠٩/٩ بسنده عن الرُّبَيِّعِ بنت مُعَوِّذِ بن عفراء قال: (جاء رسول الله ﷺ يدخل حين بُنِيَ عليَّ فجلس على فراشي كمجْلِسكَ منَي فجعلتْ جويريات لنا يضربن بالدُّفِّ ويَنْدُبن من قُتِلَ من آبائي يوم بدر إذ قالت

(1)العمدة ص ٢٠٠/١

إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد فقال: دعي[١] هذه وقولي بالذي كنتِ تقولين).

قال الحافظ في الفتح: قوله: (كمجلِسكَ) بكسر اللام أي مكانك. قال الكرماني: هو محمول على أن ذلك كان من وراء حجاب أو كان قبل نزول آية الحجاب أو جاز النظر للحاجة أو عند الأمن من الفتنة. اهـ

والأخير هو المعتمد والذي وضح لنا بالأدلة القوية أن من خصائص النبي ﷺ جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها وهو الجواب الصحيح عن قصة أم حَرَام بنت ملحان [٢] في دخوله عليها ونومه وتفليتها رأسه ولم يكن بينهما محرمية ولا زوجية [٣]. اهـ

وقال البدر في العمدة: وفي الحديث فوائد منها: تشريف الرُّبَيِّعْ بدخول النبي ﷺ عليها وجلوسه أمامها. وقال الكرماني فإن قال: كيف صح هذا، قلت: اما أنه جلس من وراء حجاب أو كان قبل نزول آية الحجاب أو جاز النظر لحاجة أو عند الأمن من الفتنة واستحسن بعضهم (يقصد ابن حجر) الجواب الأخير.

---

(1) قوله (دعي) أي قال النبي ﷺ لتلك الجارية التي قالت (وفينا نبي يعلم ما في غد) دعي أي اتركي هذا القول لأن مفاتيح الغيب لا يعلما إلا الله، وقوله: (وقولي بالذي كنت تقولين) يعني اشتغلي بالأشعار التي تتعلق بالمغازي والشجاعة ونحوها.
راجع: عمدة ص ١٣٥/٢٠

(2) حديث أم حَرَام أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء ١٣/٦ وأخرجه أيضا في كتاب الاستئذان باب من زار قوما فقال عندهم ٧٣/١١ ومواضع أخرى.

(3) الفتح ص ١١٠/٩

قلت: كل هذا دوران لطلب شيء لا يظفر به. والجواب الصحيح الواضح أن من خصائص النبي ﷺ جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها كما ذكرنا في قصة أم حَرَام بنت ملحان في دخوله عليها ونومه عندها وتفليتها رأسه و لم يكن بينهما محرمية ولا زوجية[1]. اهـ

قلت: وهذا النموذج نلمح فيه أمرين:

الأول: أن العيني -رحمه الله- لم ينقل كلام ابن حجر كله بل نقل بعضه.

الثاني: الجواب الذي أجاب به العيني واعتبره الصحيح الواضح هو نفس الجواب الذي ذكره الحافظ ابن حجر واعتبره أيضا الصحيح الواضح.

وهذا الصنيع من العيني لا يخرج عن ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن يكون من باب عدم الأمانة في النقل.

الوجه الثاني: أن تكون النسخة التي ينقل منها العيني كلام ابن حجر فيها نقص أو تحريف.

الوجه الثالث: أن يكون الحافظ ابن حجر أصلح بعض المواضع في الفتح فزاد فيه أشياء.

وعلى الوجه الأول يكون العيني مُدَان لأنه تعمَّد بتر كلام ابن حجر. وعلى الوجه الثاني والثالث يكون العيني -رحمه الله- معذورا. والحقَّ أقول لا أستطيع أن أرجِّح أحدَ الوجوه الثلاثة لأنني من خلال بحثي تبيَّن لي أن الوجوه الثلاثة محتملة ووجدت ما يدل على احتمالها. ولكني أُحسن الظن بالعيني -رحمه الله.

---

(1) العمدة ص ٢٠/١٣٥ - ١٣٦

أما الوجه الأول: فمما يؤيد احتماله أن الحافظ ابن حجر قد اتهمه بأنه يذكر بعض كلامه ويعترض عليه ويجيب ببعضه الآخر عمدا منه ليوهم القارئ أنه من مبتكراته.

فقال الحافظ في الانتقاض ما نصه: «وقد اغتفرت له أخذ كلامي ومباحثي وغير ذلك مما تعبت فيه حتى أنه يصرح بنسبته لنفسه بقوله قلت إلى أن انتهى به الأمر إلى أن يذكر بعضه ويعترض عليَّ ببعضه ويوهم أنه قال شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم»[١]. اهـ

وقد اتهمه أيضا صاحب المحاكمات بهذا في عدة مواضع: فقال في بعض المواضع ما نصه: «وأقول: قد تكرر من العيني -رحمه الله- مثل هذا النقل مبتورا»[٢] اهـ.

وقال أيضا ما نصه: «قلت مرارا إن العيني -رحمه الله- لا يبالي بنقل عبارة ابن حجر بتراء أو مقصوصةَ الجناح وليس ذلك من دأب الأمين»[٣] اهـ

وقال أيضا ما نصه: «وأقول مما يُسئُني واللهِ أن ينقلَ الإنسانُ العالم الأمين كلام غيره مبتورا مقصوصَ الجناح وربما يُسِيء القارئ الظن بالمنقول عنه مع براءة ساحته»[٤] اهـ.

وقال أيضا ما نصه: «فلم يبق إلا أن أقول على رءوس الأشهاد لا يجوز لمن في يده شرح العيني أن يقنع بما يسنده إلى ابن حجر فينقله أو يقرره إلى بعد مراجعة شرح ابن حجر»[٥] اهـ.

---

(1) انتقاض الاعتراض ص ١٧٠
(2) مبتكرات اللآلئ والدرر ص ١٥٩
(3) المرجع السابق ص ٨٦
(4) المرجع السابق ص ٢٢٨
(5) مبتكرات اللآلئ والدرر ص ٢١٦

أما الوجه الثاني: فمما يؤيد احتماله أيضا أن الحافظ ابن حجر نفسه في الانتقاض ذكر بعض الاعتراضات التي بناها العيني على النقول المبتورة وذكر هذا الاحتمال – وهو كون النسخةِ التي نقل منها العيني كلام ابن حجر ناقصة – فقال في الانتقاض ما نصه: «لعل النسخة التي نقل منها (ع) كان فيها نقص»[(١)] اهـ.

وقال أيضا ما نصه: «ويحتمل أن يكون ذلك وقع في النسخة التي وقف عليها فبنى اعتراضه عليها وإلا فالذي في أصل ما ذكرته لا إشكال فيه»[(٢)] اهـ.

ولقد قال بهذا الاحتمال أيضا صاحب المحاكمات فقال بعد ما ذكر نقلا للعيني من ابن حجر وهو مبتور ما نصه: «وأقول: إن من المقطوع به أن النسخة التي نقل منها العيني كلام ابن حجر محرفة تحريف لا يقبل الإصلاح لأن ما اعترض به العيني عليه لا يَنْصَبُّ على عبارة ابن حجر التي نقلها وهي نظيفة لا يحتاج فهمها إلى إعمال فكر ولا إشكال في منطوقها ولا في مفهومها»[(٣)] اهـ.

وقال أيا ما نصه: «والنسخة التي نقل عنها العيني مصحَّفة»[(٤)] اهـ.

أما الوجه الثالث: فمما يؤيد احتماله أيضا أن بعض أصحاب كتب التراجم التي ترجمت للحافظ ابن حجر قالت بأنه أصلح بعض المواضع من شرحه بعد اطلاعه على اعتراضات العيني –رحمه الله.

---

(1) انتقاض الاعتراض ص ٢٤٧
(2) المرجع السابق ص ٧٦
(3) مبتكرات الآلئ والدرر ص ٤٧
(4) مبتكرات الآلئ والدرر ص ٨٧

فقد قال ابن فهد في لحظ الألحاظ: ولما ظهر شرح البدر أصلح ابن حجر بعض مواضعَ من كتابه وحاول الرد على البدر في كتابه (انتقاض الاعتراض) لكنه ما أجاد[١] ولا بلغ المراد[٢]. اهـ

وبهذا أيضا قال الكوثري: فقال في تقديمه لعمدة القارئ ما نصه: «وبعد أن اطَّلع الشهاب على شرح البدر أخذ يؤلف في دفع اعتراضاته كتابًا سمَّاه (انتقاض الاعتراض) فكتب الاعتراضات وترك ما تحتها بياضا ليتسنى له الإجابة عنها فاخترمته المنية ولم يقدر أن يجيب عن غالبها[٣] وإن أصلح بعض مواضع من شرحه بعد ذلك»[٤] اهـ.

وبهذا أيضا قال صاحب المحاكمات: فقد ذكر بعض النقول التي نقلها العيني من الفتح وهي غير مطابقة لها ثم قال ما نصه: «وها هنا واللهِ يقف العقل ويتحيَّر بين نص الناقل والمنقول منه. فنضطر إلى الاعتماد على ما في كشف الظنون من أن الطلبة كانوا يتراوحون بالمسودات بين الشيخين فيجوز أن يكون فيه تصليح بعد السهو في المسودة»[٥] اهـ.

قلت: وبعد أن بينت أن الوجوه الثلاثة محتملة وبينت ما يدل على احتمالها، أرى والله أعلم أن أقربها إلى الصواب المختار في نظري الوجه

---

(1) وأرى في قول ابن فهد حنفي (ما أجاد ولا بلغ المراد) تجنيا على الحافظ ابن حجر فإن من يطالع الانتقاض يجده أجاد وبلغ المراد في ردود كثيرة.

(2) لحظ الألحاظ ص ٣٣٤ - ٣٣٥

(3) قول الكوثري أن ابن حجر (لم يجب عن غالبها) إن قصد به باعتبار مجموع اعتراضات العيني في العمدة فهو مُسلَّم له. أما إن قصد به باعتبار ما جمعه في الانتقاض فغير مُسلَّم له لأن الواقع أنه أجاب عن غالبها.

(4) تقديم الكوثري لعمدة القاري ص ٩/١

(5) مبتكرات الآلئ والدرر ص ١٢٨

obeikandl.com

الثاني: وهو أن تكون النسخة التي نقل منها العيني كلام ابن حجر فيها نقص أو تحريف، وسبب ميلي إلى أن يكون هذا هو أقربها إلى الصواب الأمور الآتية:

(١) أن الحافظ ابن حجر في الانتقاض -بالرغم من شدة المساجلات التي كانت بينه وبين العيني وحِدَّةُ ألفاظه في اعتراضاته له- بيَّن أنه احتمال وارد. ولا يقول هذا من فراغ.

(٢) أن أغلب كتب التراجم ذكرت أن الطلاب كانوا يتراوحون بالمسودات بين الشيخين. والمسودات عادة ما يكون فيها محوٌ وإثبات.

(٣) أن صاحب المحاكمات قال: (إن من المقطوع به أن النسخة التي نقل منها العيني كلام ابن حرج محرفة تحريف لا يقبل الإصلاح) وهو ممن مارس اعتراضات العيني فلا يقول هذا هباءً.

(٤) أن عالما ورعا تقيا نقيا كالعيني -رحمه الله- لا ينبغي أن يُظن به أنه يُقْبِلَ على مثل هذا الفعل القبيح ويُجِيْزُ لنفسه أن يغيِّر عبارات ابن حجر أو يبترها مهما كانت الخصومة بينه وبين ابن حجر -رحمه الله. ونحن نحسن الظن به كما قلت منذ قليل.

(٥) من خلال بحثي في الشرحين وجدت أمثلة تقوي القول بأن النسخة التي نقل منها العيني كلام ابن حجر كانت ناقصة. فمثلا

في كتاب الزكاة باب الصدقة من كسب طيب ٣٢٦/٣ أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فَلُوَّه[1] حتى تكون مثل الجبل**».

---

(1) (فَلُوَّه) بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو وهو المهر لأنه يفلي أي يفطم اهـ.

ثم قال البخاري: «وقال ورقاء عن ابن دينار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ...».

قال الحافظ في الفتح: ولم أقف على رواية ورقاء هذه موصولة[١]. ثم قال بعد ذلك: تحت عنوان (تنبيه).

وقفت على رواية ورقاء موصولة وقد بينت ذلك في كتاب التوحيد[٢] اهـ.

ثم قال في كتاب التوحيد: رواية ورقاء قد وصلها البيهقي من طريق أبي النضر هاشم بن القاسم عن ورقاء[٣]. اهـ

وقال البدر في العمدة: وقال بعضهم (يقصد ابن حجر) ولم أقف على رواية ورقاء هذه موصولة

قلت: قد وصلها البيهقي في سننه من رواية أبي النضر هاشم بن القاسم حدثنا ورقاء[٤]. اهـ

قلت: فنحن نرى أن الحافظ ابن حجر بعد أن جزم بأنه لم يقف على رواية ورقاء موصولة، استدرك بعد ذلك فقال (تنبيه) وقفت على رواية ورقاء موصولة وبينت ذلك في كتاب التوحيد.

وهذا يشعر أنه وقف عليها أثناء شرحه لكتاب التوحيد. إذن فقبل وصوله إلى كتاب التوحيد كان المثبت في نسخ الطلبة القول (بعدم وقوفه على من وصلها) فقط، وأحد هذه النسخ (يعني الناقصة) هي التي نقل

راجع: الفتح ص ٣/٣٢٨.

(1) رواية ورقاء بن عمر وصلها البيهقي في كتاب الزكاة باب التحريض على الصدقة وإن قلّت ص ٤/١٧٦-١٧٧

(2) الفتح ص ٣/٣٢٩

(3) الفتح ص ١٣/٤٢٨

(4) العمدة ص ٨/٢٧١

obeikandl.com

منها العيني كلام ابن حجر. ثم بعد ذلك لما وقف ابن حجر على من وصلها أثبت التنبيه على ذلك في نسخته وربما لم يثبت ذلك في نسخ بعض الطلبة. وهذا يفهم منه –لا شك– أن النسخة التي نقل منها العيني أقوال بن حجر أحيانا يكون فيها نقس.

فلا يليق بنا إذن أن نخوض في أعراض العلماء الذين هم ورثة الأنبياء –رحمهم الله وأجزل لهم المثوبة والعطاء– وعلى الله قصد السبيل.

نهاية المنافسة بين الإمامين –رحمهما الله:

وبعد عرضنا لما كان بين الإمامين –رحمهما الله– من منافسة عادة ما تكون بين الأقران وما تخللها من مساجلات دارت بينهما وعرِفْنا أن المنافسة التي كانت بينهما تتسم بالصبغة العلمية.

قد يظن البعض خطأ أن ما دار بين الإمامين من اعتراضات وردود تخللتها الألفاظ القاسية أحيانا – قد يُظَن أن هذا يخدش قدرهِما وجلالهِما أو يقلل من شأنهما الرفيع. والواقع غير ذلك تماما. فإن المنافسة التي كانت بين الإمامين –رحمهما الله– كانت شريفةً عفيفة جنيا حصادها علما غزيرا نافعا لكل مسلم في الدنيا والآخرة. ولو نظرنا إلى نهاية تلك المنافسات والمساجلات لوجدنا ما يدل دلالة قاطعة على ما تمتع به كل منهما من أخلاق حميدة وتواضع لا يدانى وحفظ لحقوق الإخوَّة الإسلامية لا يتخللها غرور أو انتصار للذات أبدا.

وسوف أورد الآن ما يدل على ذلك:

(١) فقد تبادلا الاستفادة من بعضهما: فقد استفاد ابن حجر من العيني واستفاد العيني من ابن حجر وأخذ عنه وذلك يمثِّل صفات العلماء المتواضعين

الذين يطلبون العلم لذاته بصرف النظر عن من الآخذ عنه أو لقبه[١]. اهـ

(أ) فقد أخذ ابن حجر في تأليف كتابه (أنباء الغمر بأنباء العمر) من كتاب العيني (عقد الجمان) وأقرَّ بذلك ابن حجر.

فقال في كتابه أنباء الغمر: كتبت منه ما ليس عندي مما أظن أنه اطَّلع عليه من الأمور التي كنَّا نغيب عنها ويحضرها[٢]. اهـ

(ب) وكذلك علَّق ابن حجر من فوائد العيني وسمع عليه لأجل ما كان عزم عليه من عمل البلدانيات

فقد قال السخاوي: علَّق شيخنا عنه من فوائده بل سمع عليه ثلاثةَ أحاديث لأجل البلدانيات ظاهر عينتاب بقراءة موقعه ابن المهندس مع ما بينهما مما يكون بين المتعاصرين غالبا[٣].

(ج) وكذلك استفاد العيني -رحمه الله- من ابن حجر عند تصنيفه «رجال الطحاوي».

قال السخاوي: وكذا كان هو يستفيد من شيخنا خصوصا حين تصنيفه رجال الطحاوي[٤].

(٢) ذكر ابن حجر العيني في عِدَادِ شيوخه وترجم له في معجم شيوخه.

قال السخاوي: وترجم له شيخُنا في رفع الإصر وفي معجمه باختصار[٥].

---

(1) راجع: الذيل على رفع الأصر ص ٤٣٤

(2) أنباء الغمر بأنباء العمر ص ٤٣٢/٢، ٤٣/٣، المنهل الصافي ص ٦٤٥/٥

(3) الضوء اللامع ص ١٣٣/١٠. وراجع تقديم الكوثري لعمدة القاري ص ٤/١

(4) الضوء اللامع ص ١٣٣/١٠، وراجع أيضا التبر المسبوك ص ٣٧٨

(5) الضوء اللامع ص ١٣٣/١٠، وراجع أيضا التبر المسبوك ص ٣٧٨، وتقديم الكوثري لعمدة القاري ص ٤/١

obeikandl.com

(٣) سافر ابن حجر مع العيني إلى بلاد الشام واستضافه العيني في بلده عينتاب[١] وأحسن ضيافته[٢].

(٤) كان العيني -رحمه الله- يزور ابن حجر ويتردد عليه في مرض موته.

وتطرق الحديث بينهما عن مسموعات زين الدين العراقي.

فأجاب ابن حجر بأنها ليست مجموعة من كتاب ولكنني أوردت في ترجمته من معجمي ما أخذته عنه وذلك شيء كثير فانظروه فإذا حصَّلتموه نأخذ في النظر في الباقي[٣]. اهـ

قلت: وبعد عرضنا لما كان بين الإمامين من منافسة وكيف انتهت على مزيج من المحبة والإخوَّة والمودة والتزاور لا أملك إلا أن أقول:

تلك هي أخلاق العلماء وشيم الفضلاء النبلاء.

جزاهم الله عنَّا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

(1) سبق بيانها في ترجمة العيني في الفصل الثاني.

(2) راجع: أنباء الغمر ٤٩٦

(3) راجع: الذين على رفع الأصر ص ٤٣٤، التبر المسبوك ص ٣٧٧

obeikandl.com

المبحث الثاني

ظاهرة التأثير والتأثر
بين الإمامين رحمهما الله

ظاهرة التأثير والتأثر بين العلماء أمر طبيعي. فنجد دائما اللاحق ينقل عن السابق كلامه بغرض التفسير والشرح أو الاختصار أو التهذيب أو الاستشهاد به والاستفادة منه أو انتقاده وبيان ما فيه من وجوه الصواب أو الخطأ أو غير ذلك كثير وهذا أمر لا عيب ولا لوم فيه. ما دام الناقل ينسب القول لقائله. فمن ذا الذي لم يتتلمذ على من سبقه.

وإذا ما نظرنا للإمامين –رحمهما الله– في شرحيهما نجدهما على السواء قد تأثَّرا بمن سبقهما من العلماء الذين شرحوا صحيح البخاري وغيرهم.

فنقلا كثيرا عمن سبقهم من العلماء وأحيانا يرتضيان ما ينقلانه فيلتمسان له ما يقويه من المنقول والمعقول وأحيانا لا يرتضيانه فيبينان ما فيه من خطأ ويذكران الصواب[١] ومن خلال معايشتي للشرحين تبيَّن لي:

أن الإمامين –رحمهما الله– إذا نقلا عمن سبقهما من العلماء فإنهما ينسبان القول لقائله بذكر اسمه صراحة أو اسم مؤلَّفه الذي نقل منه كلامه. وهذا هو السائد والغالب من صنيعهما تجاه النقل عن السابقين[٢].

والحقُّ يقتضي أن أقول: إذا كان السائد والغالب على الإمامين رحمهما الله

---

(1) كما دافع بن حجر عن سيدنا سعد بن معاذ ورد قول القرطبي أنه صاحب أخد القبرين كانا يعذبان (فتح ص ٣٨٣/١)

(٢) وهذا لا يحتاج لبيانه أمثلة فإن الناظر في أي صفحة من صفحات الفتح والعمدة يرى هذا كثيرا وواضحا في الشرحين.

تجاه النقل عن السابقين هو عزو كل قول لقائله فإنه وقع منهما –على قلة– نقل بعض الأقوال مع عدم عزوها لقائلها.

وهذا الصنيع منهما نظرا لقلبته وخفائه نضرب له أمثلة تؤكد ما نقوله:

أولاً: مثال لما نقله الحافظ ابن حجر عمن سبقه و لم يعزه لصاحبه:

فنراه عند شرحه لحديث أصحاب الغار[١] وهو بصدد الجمع بين رواياته:

قال في الفتح: ما نصه: «وقوله في هذه الرواية (فَرَق[٢] من أرز) تقدم في البيوع بلفظ (فَرَق من ذرة) فيجمع بينهما بأن الفَرَق كان صنفين وأنهما لما كانا حبين متقاربين أطلق أحدهما على الآخر والأول أقرب»[٣] اهـ.

قلت: وهذا الكلام برمته قد قاله من العلماء السابقين الإمام الكرماني في شرحه لصحيح البخاري[٤].

ولذلك نرى العيني –رحمه الله– في عمدته: عدَّ هذا مما أخذه ابن حجر من الكرماني: فقال بعد إيراده له ما نصه: «قلت هذا أخذه من الكرماني»[٥] اهـ.

مثال آخر: قال البخاري في كتاب الدعوات باب الدعاء في الصلاة ١٣٥/١١ (حدثنا علي حدثنا مالك بن سُعَير... إلخ) وذكر الحديث.

---

(1) هذا عند رواية البخاري له كتاب الحرث والمزارعة باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم ص ٢٠/٥

(2) الفرق: بالتحريك: مكيال يسع ستة عشر رطلا وهي اثنى عشر مدا أو ثلاث آصع عند أهل الحجاز وقيل: الفرق من خمسة أقساط والقسط نصف صاع أما الفرق: بالسكون: فمائة وعشرون رطلا.
راجع النهاية في غريب الحديث ص ٤٣٧/٣

(3) الفتح ص ٢١/٥

(4) راجع الكواكب الدرارى ١٥٧/١٠

(5) العمدة ص ١٧٢/١٢

فقد قال ابن حجر في بيان من هو (على) شيخ البخاري هنا ما نصه: «وعلي شيخه هو ابن سلمة كما أشرت إليه في تفسير المائدة»[١].

قلت: وهذا الكلام نفسه قد قاله من العلماء السابقين الإمام الكلاباذي في كتابه رجال صحيح البخاري[٢]. لذلك نرى الإمام العيني -رحمه الله- قد عدَّ هذا مما أخذه ابن حجر من الكلاباذي.

فقال في العمدة -بعد نقله له- ما نصه: «قلت: قد نقله عن الكلاباذي ثم أوهم أنه هو القائل بذلك»[٣] اهـ.

ثانيًا: مثال لما نقله العيني -رحمه الله- عمن سبقه و لم يعزه لصاحبه:

فقد قال العيني -رحمه الله- وهو بصدد شرحه لحديث تصفيد الشياطين:

ما نصه: «فإن قلت: قد تقع الشرور والمعاصي في رمضان كثيرا فلو سلسلت لم يقع شيء من ذلك».

قلت: هذا في حق الصائمين الذين حافظوا على شروط الصوم وراعوا آدابه. وقيل: المسلسل بعض الشياطين وهم المردة لا كلهم كما تقدم في بعض الروايات.

والمقصود: تقليل الشرور فيه وهذا أمر محسوس فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره. وقيل: لا يلزم من تسلسلهم وتصفيدهم كلهم أن لا تقع شرور ولا معصية لأن لذلك أسبابا غير الشياطين كالنفوس الخبيثة والعادات القبيحة والشياطين الإنسية[٤]. اهـ

---

(1) الفتح ص ١٣٦/١١
(2) رجال صحيح البخاري للكلاباذي ص ٥٣٠/٢
(3) العمدة ص ٢٩٢/٢٢
(4) العمدة ص ٢٧٠/١٠

obeikandi.com

قلت: وهذا الكلام برمته قد ذكره من العلماء السابقين الإمام القرطبي -رحمه الله- في كتاب المفهم في شرح صحيح مسلم[١]. اهـ

ولقد نقله الحافظ ابن حجر في الفتح وعزاه إليه، فقال عند ذكره: (قال القرطبي: ثم ذكر هذا الكلام برمته) [٢].

مثال آخر: فقد ذكر العيني -رحمه الله- أحاديث جواز الجهر بالبسملة واستفاض في دراسة أسانيدها وبيان ضعفها فيما يقرب من ست صفحات من العمدة. وهو يعبر بقوله (فإن قيل كذا: قلت كذا) مما يوهم أنه من كلامه هو[٣].

قلت: وهذا كله قد قاله من العلماء السابقين الإمام الزيلعي في كتابه نصب الرواية.

ولقد قابلت ما كتبه العيني في عمدته بما كتبه الإمام الزيلعي في نصب الراية فوجدت بينهما تطابقا و لم أجد بين الكلامين أي اختلاف إلا في بعض الحروف اليسيرة أو تقديم وتأخير[٤].

قلت: وهذا مما يؤخذ على الإمامين –رحمهما الله– وإن كان قليلا

أما عن ظاهرة التأثير والتأثر بين الإمامين رحمهما الله في شرحيهما لصحيح البخاري. ونعني بذلك تأثر العيني -رحمه الله- في عمدته بالحافظ ابن حجر في الفتح. لأن ابن حجر وإن كان أصغر سنا إلا أنه أسبق تأليفا لشرحه[٥].

---

(1) راجع المفهم شرح صحيح مسلم ص ١٨١٢/٤

(2) راجع الفتح ص ١٣٧/٤

(3) راجع العمدة ص ٢٨٦/٥ - ٢٩١

(4) راجع: نصب الراية للزيلعي ص ٣٤١/١ - ٣٥٥

(5) ولد الحافظ ابن حجر سنة (٧٧٣) وتوفي سنة (٨٥٢) بينما ولد العيني سنة

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو:

هل أخذ العيني -رحمه الله- نقولا في شرحه من فتح الباري؟ وهذه قضية أثارت ثائرة علماء الحديث والباحثين قديما وحديثا فمنهم من يرفض ذلك ويرى أن ما في الشرحين من تشابه أو توافق في النقول إنما سببه توافق المراجع التي ينقلان منها(١).

ومنهم من يرى أن العيني استمد شرحه من الفتح وأكثَرَ النقلَ عنه بل وبالغ البعض في هذا حتى أهدر العيني -رحمه الله- حقه وجهده في عمدته. ومحاولة حسم النزاع في هذه القضية صعب جدا والبَتَّ فيها بحكم ليس بالسهل أو اليسير.

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا نور البصيرة وأن يجنبنا الزلل وأن ينطقنا بما يرضيه عنا. ونحن بصدد البحث في هذا الموضوع، **فنقول:**

---

(٧٦٢) وتوفي سنة (٨٥٥) فبينهما (١٢) سنة، وانتهى ابن حجر رحمه الله من شرحه قبل العيني بخمس سنوات.

(1) جزم بهذا الكوثري رحمه الله فقال ما نصه: «ومما يزيد شرح العيني مزيَّة على مزاياه أنه كان يطَّلع على شرح الشهاب ابن حجر جزءا فجزءا بواسطة البرهان بن خضر أحد أصحاب الشهاب وينتقده في مواضع انتقاده على توافق بين الشرحين في النقول في بعض المواضع لتوافق مراجعهما. وقد يظن بعضهم أن الثاني أخذ ذلك من الأول وليس كذلك بل ذلك كما قلنا ويظهر عند الكشف عن مواطن اتفاقهما في مراجعهما ما ذكرناه وليس أحدهما أحق من الآخر في النقل عن كتب من تقدمهما». اهـ (تقديم الكوثري لعمدة القاري ص ١/٩).

أولاً: من خلال دراستي وقراءتي في شرح العيني -رحمه الله- لم أره قط صرَّح بالنقل عن ابن حجر البتة. إلا عند انتقاده والاعتراض على قوله فينقل كلامه مصدرا له بقوله (قال بعضهم).

ثانيًا: أكثر العلماء أصحاب كتب التراجم التي ترجمت للعيني -رحمه الله- ذكرت أنه استفاد من فتح الباري ونقل منه الكثير بل ان بعضهم قال أنه استمد شرحه كله من فتح الباري.

فقال السخاوي أثناء ترجمته للعيني -رحمه الله-: ومن تصانيفه: شرح البخاري في أحد وعشرين مجلدا سماه (عمدة القاري) استمد فيه من شرح شيخنا بحيث ينقل منه الورقة بكمالها وربما اعترض عليه لكن قد تعقبه شيخنا في مجلد حافل(١). اهـ

وقال حاجى خليفة أثناء كلامه عن عمدة القاري: واستمد فيه من فتح الباري بحيث ينقل منه الورقة بكمالها وكان يستعيره من البرهان بن خضر بإذن مصنفه له وتعقبه في مواضع(٢). اهـ

وقال الشوكاني في ترجمته للعيني: ومن تصانيفه شرح البخاري في أحد وعشرين مجلدا أسماه (عمدة القاري) وكان ينقل فيه من شرح الحافظ بن حجر وربما يتعقب ذلك وقد أجاب ابن حجر عن تلك التعقبات لأنهما متعاصران وبينهما منافسة شديدة(٣). اهـ

ثالثًا: كثير ممن مارس الشرحين في القديم والحديث قالوا بأن العيني -رحمه الله- أخذ كثيرًا من فتح الباري.

---

(1) الضوء اللامع ١٣٣/١٠
(2) كشف الظنون ص ٥٤٨/١
(3) البدر الطالع ص ٢٩٥/٢

obeikandi.com

فقال القسطلاني -رحمه الله- أثناء كلامه عن عمدة القاري: واستمد فيه من فتح الباري. كان فيما قيل يستعيره من البرهان بن خضر بإذن مصنفه له وتعقبه في مواضع[١]. اهـ

والشيخ الكنكوهى في لامع الدرارى على جامع البخاري قد نقل كلام صاحب كشف الظنون –السابق– وعقب بقوله وهو كذلك[٢].

وصاحب المحاكمات كثيرا ما نبه أثناء محاكماته بين الإمامين –رحمهما الله– على أخذ العيني من الفتح دون عزو إليه.

فقال في إحدى محاكماته بعد نقله لكلام الإمامين ما نصه: «وإني لا أدري ماذا أقول في هذه المحاكمة؟ لأن جميع ما قاله العيني هو منتوف نتفا من كلام ابن حجر ولا أدري كيف اتفق له هذا النقل ولهذا الرد الذي ختمه بقوله فافهم»[٣] اهـ.

وقال أيضا في إحدى المحاكمات: بعد أن نقل كلام الإمامين ما نصه: «وهل إكمال قميص قول العيني هنا إلا من أثواب ابن حجر؟ اللهم نعم. وكأنه من قبيل (لا تقربوا، أو فويل)» [٤]. اهـ

وقال الأستاذ السيد أحمد صقر في تقديمها لكتاب فتح الباري: وقد أكثر العيني النقل عن الفتح دون عزو إليه وهذا واضح لا يحتاج إلى برهان عند كل من له نظر ولو يسير في الكتابين وذكر بعض الأمثلة من كلام العيني في العمدة التي تطابق تماما كلام ابن حجر في الفتح.

---

(1) مقدمة ارشاد السارى ص ٤٣/١

(2) راجع: لامع الدرارى على جامع البخاري للكنكوهى ص ٤٠٥/١

(3) مبتكرات اللآلئ والدرر ص ٩٨

(4) المرجع السابق ص ٣٥٢

obeikandl.com

ثم قال: هذه النصوص وغيرها تؤكد أخذ العيني من فتح الباري دون عزو إليه[١]. اهـ

وقال الأستاذ الدكتور جميل أحمد شوادفي في رسالته: ولما ابتدأ الإمام العيني في شرح البخاري رام استعارة ما كَمُلَ من أجزاء فتح الباري من البرهان بن خضر تلميذ المؤلف فتوقف البرهان حتى يستأذن المؤلف في ذلك فأذن له رغبة في عموم النفع. وطالع العيني ما كمل من أجزاء فتح الباري أولا فأول عن طريق البرهان بن خضر أو عن طريق غيره ونقل منه الكثير بتمامه وحروفه[٢]. اهـ

وقال الأستاذ الدكتور احمد محرم في رسالته: واستفادته من فتح الباري ضرورة حتمتها عدة أمور: اتحاد الموضوع وغزارة المادة العلمية في الفتح ومكانته بين شروح البخاري. وجمعه لمقاصد الشرح. وسهولة حصول العيني عليه والمنافسة بينه وبين ابن حجر وحرصه على ألا يكون ابن حجر فارس الحديث على انفراد.

ولقد أضافت هذه الإفادة إلى العمدة الكثير والكثير ولولا ما لابسها من ملابسات لكانت أفضل ما في العمدة وأبهاه[٣].

رابعًا: قد ذكر الحافظ ابن حجر نفسه في الانتقاض أن العيني نقل من الفتح عن طريق استعارته لبعض نسخ الفتح من بعض الطلبة واستفاض الحافظ في كشف ما أخذه من الفتح من غير أن ينسبه إليه بل أوهم أنه من كلامه.

---

(1) تقديم الأستاذ السيد أحمد صقر لفتح الباري ص ٥٤/١ طبعة الأهرام.
(2) رسالة: منهج ابن حجر في فتح الباري. للدكتور جميل أحمد شوادفي ص ٣٠٤
(3) رسالة: بدر الدين العيني ومنهجه في عمدة القاري. للدكتور أحمد محرم ص٣٦٦

obeikandl.com

فقال في انتقاض الاعتراض: (بعد أن ذكر أن العيني بدأ في شرحه بعد أن كثرت النسخ مما كَمُلَ من الفتح). فصار يستعير من بعض من كتب لنفسه من الطلبة فينقله إلى شرحه من غير أن ينسبه إلى مُخْتَرِعِه.

وقد رأيت أن أسوق من ذلك أمثلة كثيرة يتعجَّب منها كل من وقف عليها[١]. اهـ

وبعد أن عرض الحافظ أمثلة لما أخذه العيني من الفتح من غير أن يعزوه لقائله.

قال الحافظ في الانتقاض ما نصه: «فأخذ كلام غيره فنسبه لنفسه من غير اعتذار عنه وما ظننت أن أحد يرضى لنفسه بذلك وإذا تأمل من يُنْصِف هذه الأمثلة عرف أن الرجل هذا عريض الدعوى بغير موجب متشبع بما لَمْ يُعْطِه منتهب لمخترعات غيره. ينسبها إلى نفسه من غير مراعاة عاتب عليه أو طاعن ممن يقف على كلامه وكلام من أغار عليه.

ولو حلفت أنه لم يَخْلُ باب من أبواب هذا الكتاب على غزارتها من شيء من ذلك لبررت وشاهدى على ذلك عدل من كلامه نصًا لا اختصارًا بل مسالقة ومناهبة حتى أنه يغفل فينقل لفظة قلت الدالة على أن الاختراع له والاعتراض منه ويكون ذلك كله لمن سبقه.

ومن عجايب ما وقع له: أنه بالغ في الإنكار على من يأخذ كلام من سبقه فيحكيه ولا ينسبه لصاحبه ثم وقع فيما عابه من ذلك وبالغ في الإكثار[٢]. اهـ

---

(1) انتقاض الاعتراض ص ٣

(2) انتقاض الاعتراض ص ٩

وقال الحافظ في الانتقاض أيضا: وقد كنت قصدت أن أتتبع جميع ما أخذه وأُبيِّن كيفية أخذه له فلما أمعنت وجدت الأمر يطول جدا لأنه لا يخلو في جميعه عن شيء من ذلك إما في الكلام على الإسناد وإما في الكلام على المتن(١). اهـ

ولقد أتى الحافظ ابن حجر في كتابه انتقاض الاعتراض بأمثلة كثيرة تدل دلالة قاطعة على أن العيني -رحمه الله- أخذ الكثير والكثير من فتح الباري و لم ينسبه إليه، ونبَّه على ذلك في الانتقاض عشرات المرات فنراه يذكر بعض الأمثلة لما أخذه العيني من الفتح.

ثم يعقب بقوله: وهذا ذكرته على سبيل المثال وإلا فالكتاب كله ملآن من ذلك ولله الحمد على كل حال. وكل ما وقع له من ذلك في أوائل الكتاب قليل بالنسبة لما فعله في وسطه. وأما في الثلث الثالث منه وخصوصًا في النصف الثاني من هذا الثلث فلو قال قائل أنه لم يزد على نسخة لما أبعد(٢). اهـ

خامسًا: من خلال معايشتي للشرحين وأنا بصدد المقارنة بينهما وجدت في كثير من الأبواب تطابقا بين كلام العيني في العمدة وكلام ابن حجر في الفتح. وقلت في نفسي لعله من باب توافق المصادر أو توارد الخواطر. ولكن حينما دققت النظر وأمعنت الفكر تبَّين لِي أن هذا ليس من باب توافق المصادر، لأنه كثيرا ما يقول كلاما، فإذا بي أجده في الفتح وقد نبَّه صاحب الفتح أنه من مبتكراته التي لم يسبقه بها أحد.

---

(1) انتقاض الاعتراض ص ٢٨ باختصار.

(2) انتقاض الاعتراض ص ٣٩ بتصرف يسير.

وليس من باب توارد الخواطر: لأن توافق الخواطر يكون في نقاط ومواضع معدودة محدودة.

أما هنا فالتطابق كثير جدا لا نستطيع حصره، وسوف أذكر الآن شيئا من هذا على سبيل المثال:

المثال الأول: فقد تكلم العيني -رحمه الله- في عمدته عن سبب تقطيع البخاري للحديث الواحد في مواضع وعدد أحاديث صحيح البخاري.

فقال في العمدة ما نصه: «فإن قلت» ما فائدة تقطيع هذا الحديث وإخراج طرف منه ههنا ثم إخراجه تاما في موضع آخر بعين الإسناد الذي ههنا.

قلت: مذهبه جواز تقطيع الحديث إذا كان ما يقطعه منه لا يستلزم فساد المعنى وغرضه من ذلك تنويع الأبواب وربما يتوهم من لا يحفظ الحديث ولا له كثرة الممارسة فيه أن المختصر حديث مستقل بذاته وليس بعض غيره لاسيما إذا كان ابتداء المختصر من أثناء الحديث التام كما في هذا الحديث فإن أوله هنا قوله عليه السلام (أُريت النار) إلى آخر ما ذكر منه.

وأول التام عن ابن عباس قال: قال: (خُسِفَت الشمس على عهد رسول الله ﷺ) فذكر قصة صلاة الكسوف ثم خطبة النبي ﷺ وفيه القدر المذكور هنا وكثير ممن يعد أحاديث البخاري يظن أن مثل هذا الحديث حديثان أو أكثر لاختلاف ابتداء الحديث. فمن ذلك:

قالوا عدة أحاديثه بغير تكرار أربعة آلاف أو نحوها وكذا ذكر ابن الصلاح والنووي ومن بعدهما وليس كذلك بل إذا حرر ذلك لا يزيد على ألفي حديث وخمسمائة حديث وثلاثة عشر حديثا (٢٥١٣)[1] اهـ

(1) عمدة القاري ص ٢٠١/١

قلت: فإن الناظر في كلام العيني لا يتردد لحظة في أنه من كلامه هو لأنه يقول (فإن قيل – قلت).

والواقع أن هذا الكلام بالنص قد ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح[١]. ومن المعروف أن العدد الذي ذكره العيني لأحاديث البخاري على التحرير، أول من ذكره ابن حجر في الفتح فلم يذكره أحد من الشراح السابقين.

وننبه هنا على أمر هام وهو أن الحافظ ابن حجر في هذا الموضع في الفتح ذكر العدد كما نقله العيني (٢٥١٣) حديثا.

وهو أخطأ هنا لأنه في المقدمة قال: فجميع ما في صحيح البخاري من المتون الموصولة بلا تكرير على التحرير ألفا حديث وستمائة حديث وحديثان (٢٦٠٢) [٢]. اهـ

ومن الغريب أن العيني تبعه على خطئه ونقل كلامه في الفتح.

المثال الثاني: ذكر العيني –رحمه الله– وهو بصدد ذكر ما يستفاد من حديث النعمان بن بشير في التسوية بين الأولاد: ما يقرب من صفحتين فيما يستفاد منه[٣].

وحينما رجعت للفتح وجدت كل ما ذكره في العمدة قاله ابن حجر في الفتح فلم يفترق ما في الفتح عما في العمدة إلا بتقديم بعض الفقرات وتأخير بعضها[٤].

---

(1) راجع: الفتح ص ١٠٥/١

(2) هدي الساري ص ٥٠١

(3) راجع: الفتح ص ٢٥٣/٥ – ٢٥٤

(4) راجع: العمدة ص ١٤٦/١٣، ١٤٧

obeikandl.com

المثال الثالث: فقد ترجم البخاري في كتاب الإيمان (بباب قيام ليلة القدر من الإيمان –ثم بباب الجهاد من الإيمان– ثم بباب تطوع قيام رمضان من الإيمان).

قال العيني –رحمه الله– في العمدة: «وهو بصدد الكلام عن باب الجهاد من الإيمان» وجه المناسبة بين البابين من حيث أن المذكور في الباب الأول هو «قيام ليلة القدر» ولا يحصل ذلك إلا بالمجاهدة التامة ومقاساة المشقة وترك الاختلاط بالأهل والعيال فكذلك المذكور في هذا الباب حال المجاهد الذي لا يحصل له الحظ من الجهاد ولا يسمى مجاهدا إلا بالمجاهدة التامة ومقاسا المشقة الزائدة وترك الأهل والعيال وكما أن القائم ليلة القدر يجتهد أن ينال رؤية تلك الليلة ويتحلَّى بها وإلا فيكتسب أجورا عظيمة فكذلك المجاهد يجتهد أن ينال درجة الشهداء ومترلتهم وإلا فيرجع بغنيمة وافرة مع اكتساب اسم الغزاة فهذا هو وجه المناسبة.

ثم بعد ذلك: نقل عن الكرماني –رحمه الله– عدم وجود مناسبة بين البابين، ثم تعقبه بقوله: «وهذا كلام من يعجز عن إبداء وجه المناسبة. وما ينبغي أن يذكر ما ذكرته فافهم[1]. اهـ

قلت: فإن الناظر في الكلام يقطع بأنه من كلام العيني –رحمه الله– بل ويقطع أنه مما لم يسبقه إليه أحد لأنه: يصف الكرماني بالعجز لأنه نفى عدم وجود مناسبة بين البابين. وهو ممن سبقه. ثم ذكرها هو في العمدة.

وحينما رجعت إلى الفتح إذا بي أجد الحافظ ابن حجر –رحمه الله– قد سبقه إلى ذلك فذكر وجه المناسبة كما ذكرها العيني تماما. بل وصرَّح الحافظ أنه لم ير أحدا ذكر هذه المناسبة بين البابين من شراح البخاري السابقين.

---

(1) عمدة القاري ص ٢٢٨/١

فقال في الفتح ما نصه: «قوله (باب الجهاد من الإيمان) إيراده بين هذين البابين مع أن تعلق أحدهما بالآخر ظاهر فلنكته لم أر من تعرض لها. ثم قال:

وأقول: قيام ليلة القدر وإن كان ظاهر المناسبة لقيام رمضان لكن للحديث الذي أورده في باب الجهاد مناسبة بالتماس ليلة القدر حسنة جدا. لأن التماس ليلة القدر يستدعي محافظة زائدة ومجاهدة تامة ومع ذلك فقد يوافقها أولا. وكذلك المجاهد يلتمس الشهادة ويقصد إعلاء كلمة الله، وقد يحصل له ذلك أولا. فتناسبا في أن في كل منهما مجاهدة.

«وفي أن كلا منهما قد يحصّل المقصود الأصلي لصاحبه أولا فالقائم لالتماس ليلة القدر مأجور. فإن وافقها كان أعظم أجرا. والمجاهد لالتماس الشهادة مأجور فإن وافقها كان أعظم أجرا» [1]. اهـ

قلت: والأمثلة على أخذ العيني في العمدة من ابن حجر في الفتح واستفادته منه أكثر من أن تحصى. ومن يقرأ ما كتبته في الموازنة بينهما ليجد من ذلك الكثير والكثير فلا داعي لتكراره هنا.

وفي النهاية: بعد أن ذكرت أقوال العلماء قديما وحديثا حول قضية أخذ العيني من الفتح. وبعد ما ذكرته من أمثلة تدل على ذلك أقول: «ما توصلت إليه من خلال بحثي وجهدي المقل أن العيني -رحمه الله- في عمدته تأثر بالحافظ ابن حجر في الفتح واستفاد منه ونقل عنه الكثير والكثير من غير عزو إليه. ولكن ليس هذا معناه أنه استمد شرحه كله من الفتح أو أنه نسخه منه كما زعم البعض. ولكن رأينا للعيني -رحمه الله- في العمدة مباحث طيبة لم يتطرق إليها الحافظ في الفتح ورأينا له مباحث

---

(1) الفتح ص ١١٥/١

فاق فيها الفتح ورأينا له استقلالا بشخصيته العلمية في مواضع كثيرة. وقد نبهت على ذلك في موازنتي بين الشرحين. فمن الظلم البغيض أن يُهْدَرَ الرجلُ حقَّه ويُغْبَنَ جَهْدَه المشكور.

رحم الله الإمامين بما أثريا به المكتبة الإسلامية من علم غزير.

obeikandl.com